سـورة الشعراء(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ ﴾

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ ﴾ [الشعراء]

سبق أن تكلمنا عن الحروف المقطعة فى أوائل السور ، وقلنا : فَرْق بين اسم الحرف ومُسمّى الحرف ، مُسمّى الباء مثلاً : بَا أو بُو أو بِى أو إبْ فى حالة السكون ، إنما اسمها : باءٌ مفتوحة ، أو مضمومة ، أو ساكنة ، لكن حين تنطق هذا الحرف فى كَتَب - مثلاً - تقول : كَتَبَ فتنطق مُسمَّى الحرف لا اسمه .

وقُلْنا : فى هذه المسألة معانٍ كثيرة ، أيسرها : أن القرآن ، وهو كلام الله المعجز مُنزَّل من حُروف مثل حروفكم التى تتكلمون

(١) سورة الشعراء هى السورة رقم (٢٦) فى ترتيب المصحف الشريف . عدد آياتها ٢٢٧ آية ، وهى سورة مكية فى قول الجمهور ، وهى السورة رقم ٤٦ فى ترتيب النزول نزلت بعد سورة الواقعة وقبل سورة النمل [انظر : الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١/٢٧] . وقد استثنى ابن عباس وقتادة أربع آيات منها نزلت بالمدينة من قوله ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ ﴾ [الشعراء] إلى آخر السورة . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٧/٤٩٦٥] .

بـهـا ، وكلمات مـثل التى فى لغـتكم ، لكن مـا الذى جعـله متـميـزاً بالإعـجاز عن كـلامكم ؟ نقول : لأنه كـلام الله ، هذا هو الفَرْق ، أمّـا الحروف فواحدة .

ولو تأملتَ لوجدتَ أن الحروف المقطعة فى أوائل السور مجموعها أربعة عشر حرفاً[1] ، هى نصف الحروف الهجـائية ، مرة يأتى حرف واحد ، ومرة حرفان ، ومرة ثلاثة أحرف ، ومرة أربعة أحرف ، ومرة خـمسـة أحـرف . وهذا يدلُّنا على أن القـرآن مُعْـجِـز ، مع أنه بنفس حروفكم ، وبنفس كلماتكم .

وسبق أن ضربنا لتوضيح هـذه المسألة مثلاً : هَبْ أنك أردت أن تختبر جماعة فى إجادة النسج مثلاً ، فأعطيت أحدهم صوفاً ، وللثانى حريراً ، وللثـالث قطناً ، وللرابع كتـاناً ، فهل تسـتطيع أن تحكم على دقَّـة نَسْج كل منهم وأيهـمـا أرقّ وأجـمل ؟ بالطبع لا تسـتطيع ؛ لأن الحـرير أنعم وأرقّ من القطن ، والقطن أرقّ من الـصوف ، والصـوف أرقّ من الكتـان ، فإنْ أردتَ تمـييـز الدقة والمـهارة فى هذه الصنـعة فعليك أنْ تُوحِّد النوع .

إذن : سرّ الإعـجاز فى القـرآن أن تكون مـادته ومادة غيـره من الكلام واحدة ، حـروفاً وكلمات ؛ لذلك كـثيراً ما يقـول الحق ـ تبارك وتعالى ـ بعد الحروف المقطعة :

---

(١) هذه الحروف الأربعة عشرة يجمعها قولنا : نص حكيم قاطع له سر . قال الزمـخشرى : هذه الحروف الأربعـة عشرة مـشتملة على أصناف أجناس الحـروف يعنى : من المهمـوسة والمـجـهورة ، ومن الرخـوة والشـديدة ، ومن المطبـقـة والمفتـوحـة ، ومن المسـتـعليـة والمنخفـضة ، ومن حروف القلقلة ، فسـبحان الذى دقت فى كل شىء حكمتـه . [قاله ابن كثير فى تفسيره ١/٣٧] .

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ ﴾

أى : أن الكتاب المبين مُكوَّن من مثل هذه الحروف ، ولله تعالى معَانٍ أخرى ، فيها مرادات له سبحانه ، لعلّ الزمن يكشف لنا عنها .. والقرآن كلام الله ، وصفاته لا تتناهى فى الكمال ، فإن استطعتَ أن تصف الأشياء ، هذا كذا ، وهذا كذا ، فهذه طاقة البشر والعقل البشرى . أمّا آيات الله فى كتابه المبين فهى الآيات الفاصلة التى لها بَدْء ولها نهاية ، وتتكوّن منها سور القرآن .

ومعنى ﴿ الْمُبِينِ ۝٢ ﴾ [الشعراء] الواضح المحيط بكل شىء ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. ۝٣٨ ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٣ ﴾

هذه هى التسلية لرسول الله ﷺ ؛ لأنه حمّل نفسه فى تبليغ الرسالة فوق ما يُطيق ، وفوق ما يطلبه الله منه حرْصاً منه على هداية الناس ، وإرجاعهم إلى منهج الله ؛ ليستحقوا الخَلافة فى الأرض ، ولأن من شروط الإيمان أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك[1] .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يُسلِّى رسوله ﷺ ، كما قال له فى سورة الكهف : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ ﴾ [الكهف]

(١) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره ـ أو قال : لأخيه ـ ما يحب لنفسه » . حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان .

كأنْ ترى ولدك يُرهق نفسه فى المذاكـرة ، فتشفق عليه أنْ يُهلك نفسـه ، فأنت تعـتب عليه لصـالحه ، كـذلك الحق - تبارك وتـعالى - يعتب على رسوله شفقةً وخوفاً عليه أنْ يُهلك نفسه .

ومعنى ﴿ بَاخِعٌ .. ③ ﴾ [الشعراء] البخع : الذَّبْح الذى لا يقـتصر على قَطْع المرىء والودجين[1] ، إنما يبالغ فيه حـتى يفصل الفقرات ، ويخرج النخاع من بينها ، والمعنى : تحزن حـزناً عميقاً يستولى على نفسك حـتى تـهلك ، وهذا يدل على المـشـقـة التى كـان يعـانيـها الرسول ﷺ من تكذيب قومه له .

وفى مـوضع آخر ، يقـول سبـحانه لرسـوله ﷺ : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ .. ⑧ ﴾ [فاطر] فهذا أمر نهائى واضح ، ونَهْى صـريح ، بـعـد أنْ لفتَ نـظره بالإنكـار ، فـقـال : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ .. ③ ﴾ [الشعراء]

وقد نبّه الله تعـالى رسوله فى عدّة مواضع حتى لا يُحـمِّل نفسه فوق طاقتها ، فقـال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ④⓪ ﴾ [الرعد]

وقال : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ②② ﴾ [الغاشية]

وقال : ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ .. ④⑤ ﴾ [ق]

فالحق - تبـارك وتعالى - يقول لرسوله : يسِّـر على نفسك ، ولا تُكلِّفها تكليفاً شاقاً مُضْنياً ، والعتاب هنا لصالح الرسول ، لا عليه .

---

(١) الودجان : عـرقان متصلان من الرأس إلى السَّحْر . والجمع أوداج . وهى عـروق تكتنف الحلقوم فإذا فُصِد وَدِّج . [لسان العرب - مادة : ودج] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝٤ ﴾

والآية هنا ليست آيةَ إقناع للعقول ، إنما آية تُرْغمهم وتُخضع رقابهم ، وتُخضع البنية والقالب ، وهذا ليس كلاماً نظرياً يُقال للمكذبين ، إنما حقائق وقعتْ بالفعل في بني إسرائيل . واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ .. ۝١٧١ ﴾ [الأعراف]

فأخذوا ما آتيناهم بقوة ، لماذا ؟ بالآية التي أرغمتهم وأخضعتْ قوالبهم ، لكن الحق - تبارك وتعالى - كما قلنا - لا يريد بالإيمان أنْ يُخضع القوالب ، إنما يريد أن يُخضع القلوب باليقين والاتباع .

فلو شاء ربك لآمن مَنْ في الأرض كلهم جميعاً ، لا يتخلف منهم أحد ، بدليل أنه سبحانه خلق الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، وبدليل أنه سبحانه بعث رسلاً وعصمهم ، ولم يجعل للشيطان سبيلاً عليهم ، وبدليل أن الشيطان بعد أن تعهَّد أن يُغوى بني آدم ليكونوا معه سواء في المعصية قال له : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. ۝٤٢ ﴾ [الحجر]

والشيطان نفسه يقول : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٨٣ ﴾ [ص]

إذن : لو أراد سبحانه لجعلَ الناس جميعاً مؤمنين وما عَزَّ عليه ذلك ، لكنه أراد سبحانه أن يكون الإيمان باختيار المؤمن ، فيأتي ربه طواعية مختاراً .

حتى فى أمور الدنيا وأهلها ، قد ترى جباراً يضرب الناس ، ويُخضعهم لأمره ونهيه ، فيطيعونه طاعةَ قوالب ، إنما أيستطيع أنْ يُخضِع بجبروته قلوبهم ؟!

وقال : ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء] خَصَّ الأعناق ؛ لأنها مظهر الخضوع ، فأول الخضوع أنْ تلوى الأعناق ، أو الأعناق تُطلَق عند العرب على وجوه القوم وأعيانهم ؛ لذلك يقولون فى التهديد : هذه مسألة تضيع فيها رقاب .

والمراد : الرقاب الكبيرة ذات الشأن ، لا رقاب لمامة القوم ، والضعفاء ، أو العاجزين . ومثلها كلمة صدور القوم يعنى : أعيانهم والمقدَّمين منهم الذين يملأون العيون .

والمعنى : فأنت لا تُخضِع الناس ؛ لأنى لو أردتُ أنْ أُخضعهم لأخضعتُهم ؛ لذلك يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾[يونس]

فإذا كان ربك لا يُكره الناسَ على الإيمان ، أفتُكرههم أنت ؟ ولماذا الإكراه فى دين الله ؟ إن الحق - تبارك وتعالى - يوالى تنزيل القرآن عليهم - آية بعد آية - فلعل نجماً من نجومه يصادف فراغاً ، وقلباً صافياً من الموجدة على رسول الله فيؤمن .

لكن هيهات لمثل هؤلاء الذين طُبعوا على اللدد والعناد والجحود أن يؤمنوا ؛ لذلك يقول الله عنهم : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل]

وقال عنهم :

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ ﴾

قوله ﴿ مُحْدَثٍ .. ۝٥ ﴾ [الشعراء] يعنى : جديد على أذهانهم ؛ لأننا لا نلفتهم بآية واحدة ، بل بآيات الواحدة تلو الأخرى : ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ ﴾ [الشعراء]

فكلما جاءتهم آية كذَّبوها ، وهذا دليل على اللدد والعداوة التى لا تفارق قلوبهم لرسول الله ﷺ ، بحيث لا يصادف نجم من القرآن قلوباً خالية ، فكأن عداوتهم لك يا محمد منعتْهم من الإيمان بالقرآن ، فهم مستعدون للإيمان بالقرآن إنْ جاء من غيرك .

أليسوا هم القائلين : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ ﴾ [الزخرف]

إذن : فاللدَد والخصومة ليستْ فى منهج الله ، إنما فى شخص رسول الله ؛ لذلك ربُّك يُعزِّيك ويحرص عليك : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ .. ۝٣٣ ﴾ [الأنعام] مرة ساحر ، ومرة مجنون .. إلخ . انظر إلى التسلية : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ .. ۝٣٣ ﴾ [الأنعام] فأنت عندهم صادق وأمين ﴿ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣ ﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ ﴾ [الشعراء] أى : فى غباء ولَدَد ، وهل هناك أشدّ لَدَداً من قولهم : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢ ﴾ [الأنفال]